5

الصين وقادتها

سرعـة وحجم الاتصـالات الحديثة سوف تجعل مـن الصعوبة بمكان بالنسبة لمؤرخـي المستقبل أن يستخلصـوا حساباً دقيقاً للعلاقـات الدولية المعاصرة. حتى وصول الآلة الكاتبـة وآلة النسخ، كان سحب الوثائـق عملية شاقة تقتصر علـى الأوراق الرسمية ذات الأهمية الخاصة. وحتـى وصول التيلغراف كانت الاتصـالات بطيئة جـداً بالنسبة للتوجيهـات التاكتيكية المفصلـة. والتعليمات الضروريـة للدبلوماسيين كانـت تتعلق بالمفاهيـم. والمكاتب الخارجية حتـى بالنسبة للدول الكبرى لم تكن تستطيـع أن تفعل أكثر مـن نقـل الأهداف العامـة والتقاريـر الاستراتيجية، أمـا التاكتيـكات المناسبة فكانت ترتجـل اعتباطاً. والتقاريـر الدبلوماسيـة بدورهـا كانت تُستوعب بصورة عامـة. كانت تحتاج إلى شـرح العلاقة ما بين ما حدث والاستراتيجية التي ينبغي أن تُبلغ ـ وإن كان نادراً ـ وكان يطلب من الدبلوماسي تغيير الاستراتيجية أحياناً، وفي كل حالة كانت الوثائق الدبلوماسية تحليلية إلى حد بعيد.

أحدثـت التقنية ثورة فـي إدارة الدبلوماسية ومحتواهـا معاً. فتحضير وثيقـة، ونسخها وتوزيعها بات يتـم الآن فـي بضع دقائق بلمسة زر. وتضخمـت البيروقراطية كثيراً لتحتل جانباً كبيراً ـــ ربما الأغلبية ـ مـن الوثائق الإداريـة أو التي تتعلـق بالنزاعات الداخلية. وهي لـم تعد تصور الأهـداف الجيوسياسية أو الاستراتيجية على أنها معارك سباق بيروقراطي.

ومؤرخـو المستقبـل سيواجهـون دوماً خطر الاضطراب لا تجـاه وفرة الوثائق فحسب، بـل أيضاً تجاه طبيعتهـا وخصائصها. التعليمـات المفصلة باتت تنتقل بسهولة وسرعة بالغتين بحيث إن الرئيس أو وزير الخارجيـة باتـا يفضلان تركيـز اتصالاتهما على جوهـر الدبلوماسية اليومية بدلاً مـن أغراضها. ويّطلع الدبلوماسيّـون فـي الغالب على ما ينبغي قوله أكثر مما يّطلعون لمـاذا ينبغي قول ذلك. وتخضع التاكتيات والسياسات الداخلية لاستراتيجية، وهي مقتصرة على عقول قلة من صانعي السياسة. وتحول التاريخ إلى حساب لما هو فوري وحساس، مجرد من المنظور التاريخي أو الرؤية بعيدة المدى.

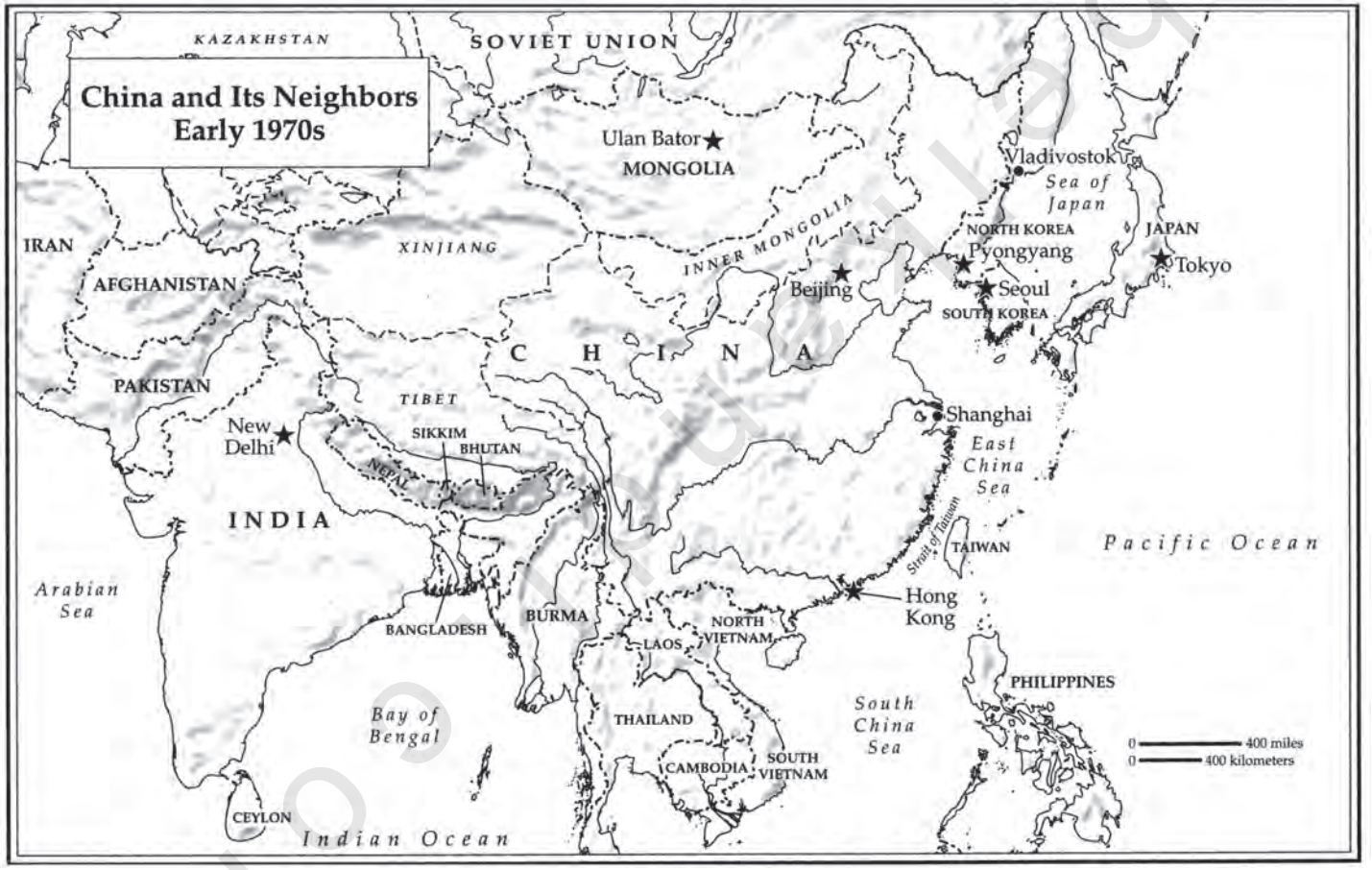

China and Its Neighbors
Early 1970s
KAZAKHSTAN
SOVIET UNION
Ulan Bator
MONGOLIA
INNER MONGOLIA
XINJIANG
CHINA
TIBET
Beijing
Vladivostok
Sea of Japan
NORTH KOREA
Pyongyang
Seoul
SOUTH KOREA
JAPAN
Tokyo
Shanghai
East China Sea
TAIWAN
Strait of Taiwan
Hong Kong
Pacific Ocean
PHILIPPINES
South China Sea
NORTH VIETNAM
SOUTH VIETNAM
LAOS
CAMBODIA
THAILAND
BURMA
BANGLADESH
SIKKIM
BHUTAN
NEPAL
New Delhi
INDIA
PAKISTAN
AFGHANISTAN
IRAN
Arabian Sea
Bay of Bengal
Indian Ocean
CEYLON
0 400 miles
0 400 kilometers

منذ إعادة العلاقات الدبلوماسية مع الصين عام 1971، كانت العلاقات الصينية ـ الأمريكية استثناء ملحوظاً. فنظراً لعدم وجود اتصالات بين البلدين لفترة عقدين من الزمن فقد بدأت الولايات المتحدة والصين من صفحة جديدة ناصعة. ذلك أن سياسة ماوتسي تونغ بالاعتماد على النفس وسياسة الحظر التجاري التي مارستها أمريكا قد خنقت العلاقات الاقتصادية بين البلدين. أما المسائل التي استند إليها استئناف العلاقات بين البلدين بالدرجة الأولى فقط كانت مسائل جيوسياسية: تقويم البلدين الخاص للتهديد من جانب الاتحاد السوفييتي، ومستقبل تايوان، وتحديد علاقات القوى في آسيا والعالم.

تركز الحوار الصيني ـ الأمريكي على الاستراتيجية لأن مطلب كل طرف تجاه الآخر كان يتم بتقريب وجهات النظر وتلاقيها حول الوضع الدولي. من بين جميع اللقاءات الدبلوماسية التي قمت بها، إما بمفردي أو مع الرئيسين اللذين خدمتهما ـ كانت اللقاءات مع الزعماء الصينيين هي الأطول والأكثر صلة بالمفاهيم. والحق لم يكن لدينا شيء آخر نتحدث عنه في تلك الأيام المبكرة ولا وسائل أخرى لبناء علاقات نوينا أن نؤسسها.

أسلوبان في الدبلوماسية

مشهد التبادلات المتنامية الصينية ـ الأمريكية بات ملحوظاً بشكل متزايد بسبب الفجوة الواسعة في التاريخ، والثقافة، والأيديولوجيا، والتنمية الاقتصادية التي تفرق بين المجتمعين. الذين خبروا الصين في عهد ماو فقط يستطيعون تقدير هذه الفجوة أو التحولات التي حدثت منذ ذلك الحين. المدن الحديثة المنطلقة بسرعة، وطفرات البناء الضخمة، وأزمات السير المحتشدة، وظهور المجتمع الاستهلاكي كانت غير متوقعة في الأيام التي كانت فيها الصين تتمسك بحماستها الأيديولوجية القائمة على كتيب ماو الأحمر. لقد كان عالماً خاصاً قائماً بذاته يتميز بالصناعة الراكدة، والكوميونات الزراعية المتخلفة، والعدد الهائل من السكان باللباس التقليدي، والشوارع التي كانت أداة السير الأساسية فيها هي الدراجة. تلك كانت الصين التي زرتها في تلك الأيام البعيدة عندما اجتمع نيكسون المعادي للشيوعية علناً بماو زيدونغ المتمسك بالشعارات المعادية للرأسمالية ليطلقا ثورتهما الجيوسياسية.

كان نيكسون متعلقاً بالرغبة في الخروج من فيتنام، كي يوجد ثقلاً موازياً للتوسع السوفييتي، وأن يسحب البساط من تحت أقدام حركة السلام القوية في الداخل بالكشف عن خطة كبيرة للسلام. كان ماد يشارك نيكسون في قلقه من التوسع السوفييتي، وكان لديه أسباب كثيرة تحمله على الاعتقاد أن الصين ستكون الهدف الثاني. ولم يكن هناك زعيم شيوعي آخر يتحدى تفوق موسكو العقائدي بصورة أقوى من ماو. وإذا كان مبدأ بريجينيف لعام 1968 الذي أعلن أن موسكو لها الحق في إرجاع أية دولة شيوعية إلى جادة الصواب بالقوة العسكرية له أي تطبيق عملي واضح فهو على صين ماو. لذلك كان التقارب بين الصين والولايات المتحدة مفروضاً على كلتيهما بالضرورة. أما حدوث ذلك بسرعة وبخط واضح فيعود إلى قدرة الزعيمين على إخضاع الأيديولوجيا للمصالح المشتركة.

مثل هذا النهج كان يتطلب تكيفاً ذهنياً من الجانب الأمريكي أكثر من الجانب الصيني. وكان ماو من الذكاء بحيث لا يمكن ألا يفهم أن الولايات المتحدة ليس لها مصلحة واردة في ذهنها في الدفاع عن حقه في الخروج عن الاجماع الشيوعي العقائدي كانت العودة إلى الأنماط الكلاسيكية للدولة الصينية هي الأساس الوحيد الممكن للتعاون مع الولايات المتحدة.

الصين، التي تدعى «المملكة المتوسطة» كانت في القمة في المنطقة التابعة لها في معظم تاريخها. وعندما كانت تتعرض للتهديد كانت تبحث عن أمنها عن طريق التوازن بين الدول المحيطة ـ التي كانت تعتبرها بربرية ـ فيما بينها. وكانت القاعدة الأساسية أن الدولة البربرية البعيدة يكون التعامل معها أكثر أمناً من الدولة القريبة. وفي عام 1969 كان الأمر يتطلب فطنة كبيرة لتكشف أن التهديد الأساسي لأمن الصين يأتي من الاتحاد السوفييتي، حيث كان مليون جندي من قواته قريبة من حدود الصين، وكان السؤال الأساسي الذي يدور في خلد ماو هو إذا ما كانت الولايات المتحدة، البربرية البعيدة، ستفهم مصالحها.

أما مشكلة نيكسون الفلسفية فكانت أكثر تعقيداً. لقد كان الزعيم الأول لبلد بُني على شعوب أدارت ظهرها لمؤسساتها وعاداتها وقيمها للمجتمعات التي جاءت منها. وهذا ما خلق الاعتقاد بتفوق التجربة الأمريكية السياسية وجعلها قناعة وطنية، وتعززت بجغرافية ملائمة. فلكونها آمنة بوجود محيطين كبيرين فإن الولايات المتحدة ظلت لفترة مائتي سنة القوة الكبيرة الوحيدة التي ليس لها جيران أقوياء وبالتالي لم يكن لديها أية تجربة تهديد مباشرة لأمنها. وتوازن القوى الذي مارسته أوروبا كان غير مناسب ولا خطيراً، وكان التوازن يعتبر أقل أهمية من الإجماع الأخلاقي والقانوني.

عندما تعهد في مذكرة شانغهاي عام 1972 كل من ماو ونيكسون بأن يجابه بلداهما الهيمنة في آسيا (ثم شملت بعد سنة العالم كله) كان ذلك علامة افتراق أكبر عن الولسونية الأمريكية السائدة من الافتراق عن الكونفوشيوسية التقليدية. ورغم أنها لم تفسر بالتفصيل، فإن مقاومة الهيمنة كانت تتضمن سياسة توازن القوى، أو منع أية دولة من أن تكون القيّم على الموارد والقوى العاملة الموصلة إلى الهيمنة العالمية. والانطباع غير المعلن عنه والذي لا يمكن تجنبه هو أن الصين والولايات المتحدة كانتا مشتركتين معاً في مجابهة القوة السوفييتية.

والحق أن أهدافنا الاستراتيجية كانت أكثر تعقيداً: كانت تحويل قوتي الحرب الباردة العالميتين إلى قوة ثلاثية بحيث نكون أقرب إلى كل منافس أكثر مما يكونان أقرب إلى بعضهما بعضاً، وبهذا نوسع خياراتنا. مثل هذا التأكيد على الجغرافيا السياسية والتوازن لم يكن متوقعاً من رئيس أمريكي، على الأقل منذ أيام تيودور روزفيلت.

في طريقة تنفيذ استراتيجيتنا كنا معرضين بالضرورة لأسلوب الصين في إدارة شؤون الدولة. قبل رحلتي السرية إلى بيجينغ كنا نظن أننا نستطيع أن نطبق الأساليب التي كنا نستخدمها مع السوفييت

علـى الصينيين. وسرعان ما اكتشفنا الهوة الثقافية الواسعـة ما بين موسكو وبيجينغ. كان الدبلوماسيون السوفييـت يمثلون مجتمعاً تسوده تاريخياً القـوة الصارمة بدلاً من الإجماع. وأوجدوا إمبراطورية متعددة القوميـات تساندهـا قوة عسكريـة. الاتحاد السوفييتي (وروسيـا الإمبريالية من قبلـه) كان لديه قلة من الحلفـاء خـارج نطاق وصـول جيوشه. وأسلـوب التفاوض السوفييتـي كان يعكس هذه الحقائـق ـ حيث لا يستخدمونها للإقناع بقدر ما يستخدمونها لإنهاك المفاوض من خلال الاصرار والتهديد.

وعلـى العكس مـن ذلـك كان الدبلوماسيـون الصينيون يمثلـون مجتمعاً مهيمنـاً ثقافياً علـى العالم المعـروف بالنسبة له. كانـت الدبلوماسية الصينية تتسلل أكثر مما تتنمـر المفاوض كان يشبع غروره أن يكـون في «النـادي الصيني»، ولو كان عضـو شرف. ومعيار الترحيـب بزوار الصين أن كلمـة «الأصدقاء القدامى» تعني الأعضاء المقربين من النادي الصيني، و«الأصدقاء الجدد» على أنهم مرشحون للعضوية. الاعـلان عـن الصداقة يجعل من الصعب عدم الموافقة على تلك المسائـل التي يعلنها الصينيون ـ عادة في مرحلة مبكرة من المفاوضات ـ كمسألة مبدأ وبالتالي في خارج نطاق المساومة. في العلاقة الصينية ـ الأمريكية كانت مثل هذه المبادئ تتضمن دوماً وحدة الصين وما يتبعها من إِصرار على أن تايوان جزء من الصين.

أمـا بالنسبة إلـى المفاوضين السوفييـت الذين يميلون إلـى التصرف كما لـو أن الدبلوماسية حرب خنـادق، لم تكن هناك قضايـا صغيرة كهذه. كل مشكلة تعامل بذات الأهمية ويناضلون من أجلها بإصرار حتـى مـن أجل ادعاء مستقبلي إذا ما أصبح من الضروري فيما بعد التخلي عنها. كان الزعماء الصينيون ـــ على الأقل فـي المراحل المبكرة من العلاقـات الأمريكية ـ الصينية ـ يقدمـون التنازلات في القضايا غيـر الأساسية لخلق احترام للمصداقية على المـدى البعيد[1]. وقد تحملوا الكثير كي يُبيّنوا أن الصداقة الصينية ليست ظاهرة عرضية وذلك من خلال إبداء الاهتمام لرجال الدولة المستقلين في العالم والذين كان لهم علاقات طيبة مع الصين عندما كانوا في السلطة (وخير مثال على ذلك عندما أرسل ماو طائرة إلـى نيكسـون لتأتي به إلـى الصين عـام 1976، في الوقت الـذي كان فيه بعض السياسييـن في الولايات المتحدة يتجنبون الاتصال مع رئيس سابق).

يميـل صانعو السياسـة الأمريكيون إلـى الجمع ما بين الجانـب البراغماتي والتبشيـري، بين العملي والمثالـي. فـي الجانب الصينـي كانت هذه الفجوة يتـم تجاوزها بالتحليل الجيوسياسـي الدقيق ـ نظرة استراتيجيـة يرافقها إصرار كبير. يميل المفاوضون الأمريكيون إلى استخدام المفاهيم القانونية ويولون أهميـة كبيرة للوثائق القانونيـة. ويؤمن رجال الدولة الصينيون أن ما يُبقي على الاتفاقيات هو بناء إجماع حـول المصالح المشتركـة، ذلك أن الالتزامات القانونية، في نظرهم لا يمكن أن تستمر طويلاً. لذا كثيراً ما يطرحون قضاياهم في صورة اشتقاق أو استخلاص من تاريخهم الذي يعود إلى خمسة آلاف سنة.

كثيـر من المفاهيم المختلفة موجودة في المجتمعين. اسأل عندمـا يقع حدث ما، ستجد الأمريكيين يحـددون التاريـخ، ويشيـر الصينيون إلـى السلالـة الحاكمة. من السـلالات الأربعة عشـرة التي حكمت الصيـن، سبـع منها استمر حكمها أطـول من تاريخ الولايـات المتحدة بأكمله، وثـلاث منها حكمت فترة مقاربـة لتاريخنا. وفي حين أن إحساس الأمريكيين بالزمن دقيـق، والمنظور قصير نسبياً، فإن إحساس الصينييـن بالوقـت تقريبـي، والقدرة على رؤيـة الأشياء أبعد بكثيـر. المرجعيات التاريخيـة الصينية لا نجدهـا إلا عنـد الأمريكيين الأكثر خبرة. أمـا إشارتنا إلى تاريخنا فتبدو للصينييـن وكأنها تصور خبرة وطنية غير كافية بالدرجة الأولى، وتكاد لا تتضمن ولا تكفل حكماً واعياً.

ورغـم هذه الخلافـات الثقافية ظل الحوار الصيني ـ الأمريكي متماسـكاً بشكل غير عادي وامتد إلى اعتبارات كثيرة بدءاً من ولاية نيكسون واستمر منها إلى كل ولاية تالية. لقد كانت من عدة وجوه السياسة الخارجية الأمريكية ذات الحزبين الأكثر تماسكاً في القرن العشرين.

ماوتسه تونغ

كان الرئيس ماوتسه تونغ، ورئيس الوزراء زهو اينلاي، وفيما بعد نائب رئيس الوزراء دينغ كيساو بينغ هم المفاوضون اليوميون لي، ولكن ماو كان يحجب زملاءه بما يشبه الرهبة الدينية التي كان يملك ناصيتها ـ أو التي كان أتباعه يجدون من الحكمة القبول بها. الزعماء الصينيون الآخرون كانت مناقشاتهم تتضمن اقتباسـات كثيرة من أقوال الرئيس، لتأكيـد شرعية ما يقولون، أو ربما لتوفير الأمان لأنفسهم. وبالمقدار نفسه كانوا دائماً مختلفين تماماً في حضوره.

أجواء الإطالة والشمول كانت تهيمن أحياناً على الطريقة التي يدير بها ماو النقاش والاجتماعات. كان الرئيـس يقيم في «المدينة الإمبراطورية» ويتصـرف كأي إمبراطور. وكان من المستحيل تعيين المواعيد مقدمـاً معـه. إنها ببساطة كانت تبـدو وكأنها مواعيد مقدسـة. في كل اجتماع مـن الاجتماعات الخمسة التـي أجريتهـا معه يأتي نائب وزير الخارجية وانغ هيرونغ، ابـن شقيقة ماو وبعد عدة دقائق يتابع زملائي المفاوضـون عملهـم كأن شيئاً لم يحدث. ثم يضع زهو أو دينغ أوراقه ويقـول: «الرئيس ماو ينتظرك». لم يكن من المهم أن يكون الوفد الأمريكي مستعداً للمقابلة أم لا، فمثل هذا الأمر لم يكن يؤخذ بعين الاعتبار على مايبدو.

كنـت أنتقل مصحوبـاً مع زهو (أو مع دينغ في المحادثتين الأخيرتين) إلـى مقر إقامة ماو في سيارة صينية. لم يكن من المسموح أن يرافقني أيٌ من موظفي الأمن الأمريكيين، ولا تُخبر الصحافة بالاجتماع إلا بعـد حدوثـه. أظهر الصينيون مهارة في رسم الصورة العامة التـي أرادوا أن يظهروها بطريقة عامرة بالحيـاة والصـور التي يسمحـون بها والصفات التي كانـوا يصفون بها اللقاءات. وعندمـا كان يظهر ماو مشرقـاً فـي الصـورة والبيان يتحدث عن اجتمـاع مطول، فإن الرسالـة التي يراد إيصالهـا أن العلاقات

الصينيـة ــ الأمريكية تزدهر. وبعد اجتماع آخر، يظهر ماو المبتسـم وهو يلوح بأُصبعه نحوي بحيث يبدو وكأنه يوحي بأن العلاقة الأمريكية ـ الصينية لا بد أن تتطلب بعض البحث الإضافي.

مقر إقامة ماو كان يمر عبر بوابة حمراء في كسيشانغ آن جي بعيداً قليلاً عن جدران المدينة القديمة وظل هناك حتى الانتصار الشيوعي في الحرب المدنية. اليوم تمر المواصلات من ذلك الشارع باستمرار رغـم أنهـا منذ الأيـام الأولى من العلاقـات الصينية ـ الأمريكيـة، لم تكن موجودة. السيـارات الرسمية القليلـة والكميـة الكبيرة من الدراجات تضيـع في ثناياه. وقرب المدينـة الامبراطورية كان الطريق يلتف حـول بحيـرة، وفي الطرف الآخر تقوم سلسلة من مقرات إقامة كبـار الموظفين. جميعها بنيت في الفترة الأولى من الصداقة الصينية ـ السوفييتية وعكست الهندسة الستالينية الثقيلة في تلك الفترة.

بـدا مقـر إقامة ماو لا يختلف عن غيره وإن كان يبتعـد قليلاً عن بقية البيوت. في زياراتي الأولى، كان ثمـة حجرة للانتظار تحتل معظمها طاولة للعبة البينغ بونغ، اختفت فيما بعد. كنت أقاد مباشرة، على أية حـال، إلى غرفة مكتب ماو حيث تحيط بها صور معظم رؤسـاء الدول تحيط بها تجهيزات بقصد تصوير عظمة مجتمعاتهم، أما المحيطون بماو فقد قصدوا اعطاء انطباع معاكس. فالحاكم البالغ الاقتدار لأكثر الأمم سكاناً كان يرغب أن يعتبر رجل دولة عالماً لا يحتاج إلى أن يظهر سطوته من خلال الرموز التقليدية للجلال.

كانـت غرفة مكتب مـاو متواضعة. الرفوف ملآنة بمجلـدات متلاصقة ومخطوطـات تغطي الجدران الثلاثـة. وكان هنـاك كتب أخرى على الطاولـة وبعضها على الأرض. في زياراتـي الأولى كان يوجد سرير خشبـي صغيـر في زاوية الغرفة. كان ماو ينهض من كراسي سهلة شبـه مدورة في مركز الغرفة وتلحق به امـرأة بالقرب منه (وأحياناً تساعده علـى النهوض كما لاحظت في زيارتي الأخيرة)، وذلك لأن ماو حين قابلته كان يعاني من عدة إصابات أضعفت بنيته. كان يبتسم وكأنه يحذرني من أنه سيكون من الخطر أن أحاول أن أخدع هذا الاختصاصي بالنفس البشرية. ولما كان البرابرة كثيراً ما يخطئون الهدف، كان ماو كثيراً ما يؤكد ضاحكاً على استحالة خداعه ـ كما جرى في اجتماعنا في 12 ت2 1973. قال:

> اقترب مني رئيس اليمن الجنوبي. قال إنه يريد أن يقطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي. طلـب رأيي. لم أفاجأ بكلامه وقلت إن عليه أن يكون حريصاً. الآن هم يحاولون الاقتراب كثيـراً من الاتحاد السوفييتي. رغم أن وضع ماو البدنـي كان يزداد سوءاً فقد كان يظهر قـوة تركيز أعظم وأكثر تصميماً من أي زعيم قابلته ـ مع استثناء محتمل لشارل ديغول. كان يمشـي بصعوبـة، وكان حديثه يتراجـع من لقاء إلى آخر، إلـى أن أخذ مساعدوه في لقائنـا الأخير، يسجلون الكلمات التي يتمتم بها ومـا تعنيه. وكان يهز برأسه إلى أعلى أو أسفـل قبل أن ينقـل المترجم ما يريد أن يقول. على الرغم مـن العوائق البدنية كان ماو

يُجـري دوماً محادثاته بطريقة سُقراطية. وخلافـاً لطريقة الرؤساء الآخرين في البداية بالمجاملات كان يبدأ المسألة بصوت خافت. ثم يطرح عدة تعليقات تتراوح بين الفلسفة والتهكم ويتوسع في الموضوع تدريجياً.

تبين هذه النقطة لقاءاتي في تشرين الثاني عام 1973. فقد تساءل ماو وهو يفتح الجلسة عن المواضيع التي ناقشها مع زهو ومعي، ولكنه سرعان ما حول ذلك إلى مناقشة محددة حول المطامح السوفييتية:

ماو: ماذا ناقشتم؟.

زهاو: التوسعية.

كيسنجر: هذا صحيح.

ماو: من يقوم بالتوسع (تقصدني).

زهاو: هو بدأ، ولكنِ الآخرون استمروا.

كيسنجـر: وزير الخارجية ينتقدنا مـن وقت لآخر من أجل التوازن، ولكني أعتقد أنه يعرف المصدر الحقيقي.

ماو: ولكن التوسعية شيء مؤلم. ينبغي ألا تخشاهم.

كيسنجـر: نحـن لا نخشاهم يا سيـادة الرئيس. في كل مـرة نتخذ إجراءات صارمـة كما فعلنا قبل أسبوعين.

ماو: لم تكن سيئة (يشير إلى تلكؤ الولايات المتحدة أثناء حرب الشرق الأوسط).

كيسنجر: المشكلة الآن في الشرق الأوسط هي الحيلولة دون سيطرة الاتحاد السوفييتي.

مـاو: ربمـا لا يستطيعـون أن يسيطـروا علـى الشـرق الأوسـط، رغم اتسـاع طموحهـم، فقدراتهم محدودة.

التأثيـر الشامـل لملاحظات مـاو الحصيفة أنها تشير إلـى طريق المسيرة تاركاً عـن عمد القرارات التكتيكية إلى زهاو. عندما حاول نيكسون في شباط 1972 أن يجر ماو إلى مناقشة حول دول معينة أجاب الرئيس: «يجب أن تناقش مع رئيس الوزراء (زهو إينلاي). أنا أناقش القضايا الفلسفية».

كان هـذا صحيحـاً عندمـا كان ماو يريـد أن يُبعـد نفسه عن نتيجة غيـر مؤكدة. عندمـا حدد «بيان شنغاهـاي» إطار العلاقات الصينية ـ الأمريكية، تيقظت أحاسيسه مباشرة بشكل متزايد. وفي ت1 1975 فـي رحلتـي إلى بكيـن، اعتبر ماو أنه من الخطـأ أن أتحدث إلى دينـغ قبل مقابلته الرئيـس، حول اعتبار

العلاقات الصينية ـ الأمريكية جيدة لأنه لا يوجد طرف يريد شيئاً من الآخر. كان ذلك أمراً مرتجلاً جداً لأن ماو كان يسعى إلى استراتيجية منسقة مع الاتحاد السوفييتي:

إذا لم يكن أي طرف يريد شيئاً من الآخر، فلماذا جئت إلى بيجينغ؟.. (و) لماذا.. تريد أن نستقبلك ونستقبل رئيسك؟.

في شهر ك1 من العام نفسه اختار ماو حكاية شعبية للتعبير عن عدم رضاه عما اعتبره مقاومة أمريكية غير مجدية لمقاومة التحركات الكوبية والسوفييتية في أنغولا. مع أن مثل هذه الإجراءات فُرضت علينا من قبل الكونغرس:

العالم ليس ساكناً، بل عاصفاً ـ الريح والمطر ـ قادمان. والعاصفة قادمة.. مع اقتراب العاصفة نرى العصافير ترفرف... ولكن رفرفة أجنحتها لا يمكن أن تعيق مجيء العاصفة[2].

يمكن لماو أن يكون قاسياً أيضاً. ففي ك1 (ديسمبر) عام 1975 أيضاً، حاول الرئيس فورد أن يجرب أحد تعبيراته مع ماو: «أنا دائماً أقول إنه من الممكن ألا توافق بدون أن تكون غير مقبول». هزت هذه الجملة المترجم تماماً، إذ كان من المستحيل لغوياً تصوير هذا الموقف باللغة الصينية. فردّ ماو الموضوع قائلاً: «لماذا تقول ذلك دائماً؟» لو أنه فهم العبارة لكان بدون شك قد اعترض عليها بقوة أشد».

كانت محادثات ماو معنا تتناول موضوعين: التقديرات المحكمة على نحو متزايد لآرائه حول الحاجة إلى تطوير استراتيجية دولية مشتركة، والتفات أكبر إلى أوضاع الصين الداخلية. في الشؤون الخارجية كان ينتهج مقاربة جيوبوليتيكية وغير أيديولوجية بإصرار. وكان من أولى ملاحظات ماو حول زيارة نيكسون الأولى إلى الصين عام 1972:

الناس من أمثالي يطلقون مدافع كبيرة... أشياء مثل «العالم كله ينبغي أن يتحد ويهزم الامبريالية، والملكية، وجميع الأنظمة الرجعية ويبني الاشتراكية».

وضحك بصوت عال من الانطباع الذي يمكن أن يأخذه أحدهم على محمل الجد من شعار رُفع على مدى سنوات وكتب على جدران الأبنية العامة في كل الصين. وباللهجة ذاتها فضّل ماو بحماسة التعامل مع زعماء محافظين من أمثال ريتشارد نيكسون أو ادوارد هيت أو جورج بومبيدو أكثر مما يتعامل مع خصومهم اليساريين، الذين يتصفون باللاواقعية والعاطفية والتعرض لهجمات السلام الشيوعية:

أحب اليمينيين. الناس الذين يقولون إنكم يمينيون، وإن الحزب الجمهوري يميني وإن رئيس الوزراء هيث يميني أيضاً... أنا سعيد كذلك عندما يصل هؤلاء اليمينيون إلى السلطة.

obeikandl.com

إنـه مـن دواعي الحظ بالنسبـة للعلاقات الصينية ــ الأمريكيـة أن إدارة نيكسون كانت أول محـاور أمريكـي. إن أية مجموعـة أخرى ـ ولا سيما ديمقراطيـو ماكغفرن في أواخر الستينـات وبدايـة السبعينـات ــ ما كانـت قادرة علـى أن تقيـم علاقة وفـق اعتبارات استراتيجية وجيوسياسية غير عاطفية بشكل واضح في الوقت نفسه.

فـي فترة زيارة نيكسون في شباط 1972 كانـت الولايات المتحدة ما تزال تعترف بتايوان علـى أنها الحكومة الشرعية الوحيـدة للصين؛ كنا في الواقع نقوم بزيارة إلى عاصمة لم نعترف بها. كما كنا في حالة حرب مع فيتنام الشمالية، التي كانت حليف الصين الموثوق والمستفيد من مساعداتها الاقتصادية آنذاك فضلاً عن بعض المساعدات العسكرية.

لـم يُضـع ماو وقته في حل هذه التعقيدات. فتايوان لـن يسمح لها بأن تكون عقبة في وجه التقارب الصيني ـ الأمريكي، ولا الهند الصينية. «مسألة (تايوان) ليست مسألة مهمة». كما قال ماو بصراحة في الدقائق الأولى للقائه مع نيكسون، كما لو أنه كانَ يجري حديثاً وديـاً بشـيء من الثقة بالنفس. وتابع «قضية الوضع الدولي هـي القضية المهمة». وهكذا أراح مـاو بسرعة أمريكا مـن كابوس الحرب الكورية المزعج ـ الخوف من تدخل الصين في فيتنام، الذي كان يقلق كل إدارة أمريكية في مجرى الحرب في الهند الصينية. وقال بصراحـة إن الجيوش الصينية لن تغـادر حدودها ـ بغض النظر عمـا يجري في الهند الصينية (وهو ما لم يقله ماو أبداً من قبل):

فـي الوقت الحاضر إن مسألة العدوان من جانب الولايات المتحدة أو العدوان من جانب الصيـن ضئيـل نسبياً.. سوف تسحبون بعض قواتكم إلـى بلادكم، وقواتنا لن تخرج من البلاد.

فـي المباحثات المتتالية تحـدث ماو وبالتفصيـل حول الملاحظات العامـة التي ذكرها لنيكسـون وفـي ت2 عـام 1973 دعاني إلـى جولة دامت ثـلاث ساعات في آفـاق الوضع الدولي. كان يجمع بين الشك والتلميح ويتناوب بين الوداعة والتحدي الساخر، وهو يلخص بوضوح مفهومه حول كيفية احتواء الاتحاد السوفييتي عالمياً. ووصف اجتماعيه مع رئيس الـوزراء ألكسي كوسيغين في غضون عشر سنـوات. وفي ثنايا اللهجة المازحة كان يكمن تسـاؤل حول التاكتيكات الأمريكية تجاه الاتحـاد السوفييتي، والتحذير من أن الصين ما إن تنهض حتى تثبت أنها خصم لا يستهان به:

ماو: جاء كوسيغين بمفرده، وكان ذلك عام1960. قلت له إننا كنا على وشك شن معركة ضده تستمر 10 آلاف سنة (ضحك).

المترجم: الرئيس يقصد10 آلاف سنة من النضال.

مـاو: ... هـذه المرة (1969) قدمت تنازلاً لكوسيغين. قلت إنه سبـق لي القول إن الصراع سيستمر عشـرة آلاف سنـة. ومن أجـل مجيئه كـي يراني شخصيـاً فسأختصـر المدة إلـى ألف سنة (ضحك) وسترى كم أنا كريم. لقد قدمت تنازلاً إلى ألف سنة.

ثم في وقت آخر.. جاء السيد بورديولوسكي أيضاً للتحدث باسم الاتحاد السوفييتي. هذه المرة قدمت تنازلاً آخر بمقدار ألف سنة (ضحك). أترى أن الوقت يتناقص أكثر فأكثر.

وفـي المـرة الخامسة جاء الرئيس الرومانـي تشاوشيسكو. كان ذلك منذ سنتيـن. ومرة أخرى أثرت الموضوع وقلت «هذه المرة مهما تقول لا أستطيع أن أقدم تنازلات أكثر» (ضحك).

كيسنجر: ينبغي أن نتكيف مع التاكتيكات الصينية.

مـاو: لايوجـد فرق بيننا وبينكـم. أنا لا أتكلـم بسهولة الآن لأننـي فقدت سنّين. هنـاك خلاف بين نشاطاتكم ونشاطاتنا، نحن نصطدم بكل شيء يصادفنا...

كيسنجـر: شرحت لرئيس الـوزراء، فيما كنا نتجه بالسيارة إلى مكان مـا، أن تكتيكاتنا أكثر تعقيداً وربما أقل بطولة، أما استراتيجيتنا فهي نفسها. ليس لدينا شك فيمن يشكل التهديد الرئيسي اليوم في العالم.

ماو: ما تقومون به هو نوع من الملاكمة الوهمية الصينية (ضحك). نحن نقوم بملاكمة وهمية أكثر فاعلية.

زهو: ومباشرة في ضرباتها.

كيسنجر: هذا صحيح، ولكن حيثما يكون هناك تحد حقيقي، فإن تتصرف برد فعل مثلكم.

مـاو: أعتقد ذلك. ولهـذا السبب كانت زيارتك الأخيرة للعالم العربي زيـارة ناجحة (زيارتي الأولى بعد حرب الشرق الوسط).

فـي رأي مـاو ـ الذي ولّدتـه الأحداث بالتدريج ـــ أن الاتحاد السوفييتي ليس قـوة عظمى حقيقية، بل مجـرد قـوة زائفة. لقـد «مد يديه بعيـداً جداً»، وقدرتـه الصناعية لن تكـون قادرة علـى المحافظة على طموحاته الكونية. لهذا فإن موسكو لا بد أن تخسر الصراع الجيو سياسي، إذا ما تعاونت الدول المحيطة به وأحبطت خططه ولم تسمح لنفسها أن تُهزم واحدة تلو الأخرى. إنه النمط الصيني من الاحتواء:

ماو: طموحاتهم تتناقض مع طاقاتهم.

كيسنجر: هذا يمكن أن يكون صائباً.

مـاو: لنبدأ من محيطهم الباسفيكي، هناك الولايات المتحدة، وهناك اليابان، وهناك جنوب آسيا، وغرباً الشرق الوسط، وأوروبا والقوات الروسية المنتشرة على طول خطوط سيبيريا حتى جزر الكوريلي لا تشكل إلا قوة واحدة من قواهم.

زهو: شرق الأورال.

كيسنجر: ما يقارب النصف أو الخُمسين ربما..

مـاو: عليهم أن يواجهوا كثيراً من الخصوم. عليهـم أن يواجهوا المحيط الباسيفيكي. وأن يواجهوا اليابـان. عليهم أن يواجهوا الصين. وأن يتعاملوا مع جنوب آسيا، التي تتألف بدورها من عدد كبيـر من الدول. ولديهم مليون من القوات فقط هنا ـ لا تكفي حتى للدفاع عن أنفسهم وقوات أقل للهجوم. ولكنهم لا يستطيعون الهجوم إلا إذا جعلتموهم أنتم يفعلون ذلك أولاً، وفي البداية سـوف تعطونهم الشرق الأوسط وأوروبا بحيث ينشرون قواتهم شرقاً وهذا سوف يستهلك أكثر من مليون جندي.

كيسنجـر: هـذا لن يحـدث. أوافق مع الرئيس علـى أنه إذا تحالفـت أوروبا واليابـان وأمريكا معاً ـ ونحن نقوم في الشرق الوسط بما ناقشته مع الرئيس في المرة الأخيرة ـ عندئذ سيكون خطر الهجوم على الصين ضئيلاً جداً.

ماو: نحن نمسك بجزء من قواتهم أيضاً، وهذا ما سيكون من صالحكم في أوروبا والشرق الأوسط. علـى سبيل المثال لديهم قوات فـي منغوليا الخارجية، وهذا لم يحـدث قبل عهد خروتشيف. فـي ذلك الوقت لـم يكونوا قد نشـروا قوات في منغوليـا الخارجية بعد بسبـب حادث جزيرة تشينباو (الصدام الصيني ـ السوفييتي) الذي جرى بعد عهد خروتشيف. لقد حدث في عهد بريجينيف.

كيسنجر: جرى ذلك عام 1969. لهذا من المهم أن تتخذ أوروبا الغربية والصين والولايات المتحدة طريقاً واحداً في هذه المرحلة.

ماو: نعم.

كيسنجر: لأنه في مثل هذه الحالة لن يُهاجم أحد.

لتنفيـذ تلك الفكـرة التي أحسن ما توصف به هـو الاحتواء الإيجابي، راح ماو يراجـع البلدان المحيطة بالاتحـاد السوفييتـي والتي يمكن أن تسهم بهذه المهمة، ويحلل مـا يحتاج تعزيزُ قوتها حتى لا تقومَ ضغوط علـى مصالحها الوطنية. قال ديفيد بروس، رئيس مكتـب اتصالنا في بيجينغ في ذلك الوقت، إنه تعامل مع تشرشل ودي غول وكودزاد أديناور، ووصف عرض ماو بأنه يدل على اطلاع واسع على القوة بحسب خبرته.

جرت هذه المحادثة في ت2 1973، في الفترة ذاتها التي كانت إدارة نيكسون تتعرض فيها للاتهامات في الولايات المتحدة بعدم الكفاءة في مواجهة التهديد السوفييتي. وفي حين كان تحليل ماو للبواعث السوفييتية يتوافق مع انتقادات المحافظين وغير المحافظين، كان يختلف معهم حول الاستراتيجية المناسبة. ومعظم الناطقين باسم منتقدي نيكسون كانوا يعتقدون أن الاتحاد السوفييتي يستعد لمنازلة نهائية ومدمرة، ولذلك كانوا يحثّون الولايات المتحدة على تعبئة سياستها نحو مجابهة التهديد بدلاً من تشتيت قوتها في منافسات جيوسياسية حول محيط الاتحاد السوفييتي. لدحر الهجمات أو الضغوطات السوفييتية حيثما وجدت هو على وجه التحديد ما اقترحه ماو كأفضل طريقة لهزيمة النزعة التوسعية السوفييتية. ولتحقيق هذا الهدف كان ماو يصر على أن الشراكة الاستراتيجية الصينية ـ الأمريكية لا تحتاج إلى اتفاقية رسمية. التفهم الملائم من كل طرف لمتطلبات الطرف الآخر ومصالحه القومية يكفي:

> لكل طرف وسائله الخاصة ويعمل وفق حاجته. وهذا ما أدى بنا إلى أن تتشابك أيدينا... طالما أن الأهداف واحدة فإننا لن نضركم وأنتم أيضاً لن تضروا بنا.
>
> بسبب التزامهما بإيجاد تحالف واقعي ضد السوفييت كان ماو (وزهو) مرتاحين بشأن علاقات أمريكا مع اليابان وأوروبا. وحضني على تقليص الخلافات التي نجمت عن اقتراحنا عام 1973 بالنسبة لسنة أوروبا»، ففي رأي مفاوضينا الصينيين أن الفوائد المنظورة للتصريحات الأمريكية ـ الأوروبية المشتركة لا تعادل الخلاف الذي كانت تولده[3]. وأظهر ماو وزهو اهتمامهما الخاص بالعلاقات الأمريكية ـــ اليابانية. فبعد سنوات من إدانة معاهدتنا الأمنية مع اليابان، فإنهم يرونها الآن وسيلةً لاحتواء الاتحاد السوفييتي ومنع إحياء العسكرية اليابانية.
>
> الشراكة الاستراتيجية الوليدة لم تخل من اختلافات في التكتيكات التي يستخدمها الجانبان. فقد كانت الصين الطرف الأكثر هشاشة في المثلث الاستراتيجي، وكان ماو يعرف ذلك. على الرغم من كل تبجح ماو عن حصانة الصين ضد الضغوط وقدرتها على الدفاع عن مبادئها. فتحت الضغط المباشر مع قليل من المناورة الدبلوماسية عامل ماو الاتحاد السوفييتي كعدو قاس لا يلين لا بد من مواجهته لفظياً، وسياسياً وعسكرياً في كل مناسبة.
>
> ولكن نيكسون ومن بعده إدارة فورد حكما مجتمعاً مصدوماً بعقد من الحرب والانقسام الداخلي. وكانت أولوية كلا الزعيمين استعادة الثقة في أهداف ورسم سياستنا الخارجية. وكانت مصالح أمريكا الوطنية تستدعي منا أن نناور بطريقة تجعلنا أقرب إلى كل من

العملاقيـن الشيوعييـن. ولما كنا نعتبر الصيـن الطرف الأضعف والأكثـر انكشافاً، كنا نغطي الصين على نحو واضح. وكان ماو واعياً تماماً لالتزام إدارة نيكسون بهذه المقاربة التي ستجعلنا، عند الضرورة، نقاوم المتغيرات في التوازن العالمي للقوى في حالة هجوم سوفييتي على الصين مهما كانت مناوراتنا التاكتيكية في الفترة الفاصلة. ولن نفعل ذلك بسبـب أي التـزام قانوني، بل من أجـل توضيح تفسيرنا للأمن القومـي. ولكن في الوقت نفسـه كنا مصممين على أن نحافظ على هامش من حرية المناورة، والاحتفاظ بالقرار النهائي للتحديات الفعلية وليست المفترضة.

ماو الذي فهم خطتنا أكثر من منتقدينا في الداخل لم يكن من المتوقع أن يكون متحمساً حـول تطبيـق إدارة شؤون الصين تجاه بلاده. كان يفضـل بالتأكيد أن يكون أحد أطراف المثلـث الاستراتيجـي ذي الخيارات الأوفر. وهو لم يخفق فـي أن جعلنا نعرف أنه أدرك سياستنـا كمـا سأشـرح في الفصـل 2. ولكنه كان من الخبـرة بحيث يفهـم أننا نمارس تاكتيكات من أجل مواصلة استراتيجيات متوازنة.

ظـل مخطـط العلاقات الصينيـة ـ الأمريكية الذي وضعه نيكسون ومـاو راسخاً على نحو ملحـوظ على مـدى خمسـ إدارات أمريكية من كلا الحزبيـن: استراتيجيـة متوازنة مع الصين للحيلولة دون «الهيمنة»، بمعنى آخر حفظ التوازن الدولي ضد التهديد السوفييتي، وتجنب التحديات من أي طرف للمصالح الحيوية للطرف الآخر، وقبول الولايات المتحدة بمبدأ صين واحدة، وعدم اعتماد سياسة وجود صينين، واحدة صينية والأخرى تايوانية، وامتناع الصين عن الضغط على تايوان. وقد بيّن ماو هذه الأولويات في ت2 1973:

نستطيـع العيش بدون تايـوان في الوقت الحاضـر حتى لو انضمت بعـد 100 سنة. يجب ألا نأخـذ الأمـور في هذا العالم بسرعة بالغة. لماذا نحـن بحاجة إلى هذه السرعة؟ إنها مجرد جزيرة يبلغ سكانها اثني عشر مليوناً أو أكثر (صححها زهو إلى 16 مليوناً)... أما بالنسبة إلى علاقتكم معنا فأعتقد أنها لا تحتاج إلى مئة سنة.

سياسة ماو الخارجية الجيوسياسية، النابعة من شخصه، وغير المؤدلجة جوهرياً تبدو مناقضة تماماً للـدور المهيمن الـذي أولاه للأيديولوجيا في الداخل. عندما عارضنا ماو فـي البداية كان زعيماً لا يمكن تحديه لثورة أطاحت بمليون ضحية باسم الحقيقة التاريخية، ومع هذا كان فخوراً بطبيعة إنجازاته. يبدو أن هنـاك دافعين متناقضين بدا أنهما ينسفان الحماسة الثوريـة: الإصرار على القيم الصينية التقليدية والركـود القائـم في الدولة الشيوعية نفسها. وعندما بدأ نيكسون اجتماعه بكلمة قال فيها إن ماو قد حول حضارة قديمة، رفع ماو صوته قائلاً:

لـم أكن قـادراً علـى تغييرها. كنت قـادراً فحسـب على تغييـر بعض الأماكـن في جوار بيجينغ.

بعـد حياة طويلـة حافلة بالنضال الشاق كي يبني جذور المجتمـع الصيني لم يكن هناك العنصـر المثير للأسى في اعتراف ماو العنيد بانغـلاق الحضارة الصينية. خلال آلاف السنيـن حكم الحكام الصينيون مجتمعاً أكثر سكاناً من أي مجتمع آخر باستخدام القوة المطلقة غالباً. ولكن الأعداد الهائلة للصينيين وشعورهم الشديد بالتفرد، والأولوية التي كان يولونهـا للأسـرة، قد حدّت من هيمنة الحكومة. ولم يكـن الحكام بدورهم متأكدين أبداً أن أوامرهم على هذا الشعب ذي الطبيعة التجارية والمتعلق بالعائلة يمكن أن تنفذ. وكانت الحكومات الصينيـة تلجأ أحياناً إلى التطرف في الحكم المطلق لإخفاء عجزها، كمـا فعـل ماو مثلاً حين فرض اللباس الموحد على جميع أفراد الشعـب. ولكن نوعاً من التعدديـة كان يتحقـق بين حيـن وآخر، ليس نتيجـة لفلسفة سياسية تتعلـق بالحرية. بل كموجة عاصفة تحيط بالعوائق ثم تطيح بها. نظراً لنمط الحياة وروح الصيني الفردية.

كانت العائلة، وليـس الدولة، هي الوحدة الأساسية في الحياة الصينية، والمحافظة على الأسرة وتعزيز مستقبلها قد أظهرتا أنهما سبب وجود المجتمع الصيني. الأسر قد تنحني كمـا تنحني أعواد القصب، أمام ريح عاصفة، ولكنهـا لا تنكسر. وقابلية التكيف عندهم قد ترسخت بسبب إدراكهـم الواسع وتقديرهم لمقومات بقاء الأسرة وتحسن أوضاعها. وفي النهاية فقد صادف حتى أعتى الحكام الصينين من هذه الكتلة البشرية المتناقضة. فهي مطيعة واستقلالية في وقت معاً، وتعتمد على نفسها، وتفرض حدوداً بدلاً من التردد في تنفيذ أوامر غير معقولة.

عندما واجهت لأول مرة موظفين ماويين رفيعي المستوى، علمت لدهشتي أنه قبل أن يستولي الشيوعيون علـى الحكـم، أرسل كثير من العائلات أولادهم إلى الخارج، إلى بلـدان مختلفة، كوسيلة للضمان ضد أية نتائج محتملة للحرب الأهلية. أحد الأبناء ينتسب إلى الشيوعية، والآخر يذهب إلى أمريكا، والثالث يمكن أن يكون في تايوان. هذا ما حدث بالنسبة إلى كثير من كبار الموظفين الرسميين الذين قابلتهم (بما في ذلك السفير الصيني في واشنطن) الذي كان له إخوة في أمريكا. وهذا وضع يحرم المواطن من الخدمة الحكومية في الاتحاد السوفييتي، وقد يهدد حياته في فترة حكم ستالين.

مـن دواعي السخرية أن البنية الأسروية الآن قد تعرضت للخطر بصورة أكبر بسبب سياسات الحد من الإنجاب في الصين، أكثر مما تعرضت لخطر الأيديولوجية الشيوعية. فالأسر ذات الولد الواحد ستولد أجيالاً مـن الأولاد بدون أخوال أو أعمام أو عمـات أو أبنائهم، وبدون تلك الشبكة الضخمة من الالتزامات وشبكات

المساندة المتبادلة التي كانت من تقاليد الأسرة الصينية، الطفل الوحيد سوف يفتقر إلى شبكة من الأنداد المعاصرين له والذين يقيمون علاقة صداقة وود، كما سيجد من الصعب التكيف مع المنافسة والنظام حيث كان تبجيل الإنجاز والتعليم موروثاً تاريخياً في الصين. والحق أن سياسة حصر الولادة (تحديد النسل) قد فرضتها الحاجة ـ محدودية الموارد بالنسبة للسكان ـ أكثر مما فرضتها الايديولوجيا.

الممارسة الشيوعية التي لابد أنها قد كبحت ببعض التوجهات التاريخية لحضارة الصين. قد تأثرت ببعض خيبات الأمل وخاصة في سنوات ماو الأخيرة. لقد مات الملايين من أجل قضية فضيلة المساواة. ولكن في نهاية حياة الزعيم العجوز تبين أن الدولة المخططة مركزياً قد حولت البيروقراطية الشيوعية إلى طبقة إقطاعية منحرفة كالطبقة التي حاربتها. ويكتسب هؤلاء المنحرفون البيروقراطيون الشرعية بحكم الواقع القائم.

في مجرى هذه الهجمات على نظام ماو كان ماو يدور إلى أزمة قديمة قدم الصين نفسها. فقد كانت الحداثة وخاصة التقنية تهدد ادعاءات المجتمع الصيني بالفرادة والتي كانت دوماً الادعاء المتميز للمجتمع الصيني. ومن أجل المحافظة عليها رفضت الصين أن تقلد الغرب في القرن التاسع عشر، وأن تخاطر بالاستعمار والتعرض للإذلال. وبعد قرن كان أحد أهداف «ثورة ماو الثقافية» أن تقتلع أولئك الناس الذين ينادون بالمعاصرة والتحديث اللذين يهددان بدمج الصين في الثقافة العالمية. ولهذا السبب أبعد ماو دينغ كيسياوبينغ عام 1966، مع جميع أنصاره من طالبي التحديث. وبإبعاده لجميع أنصاره راح يفرض رؤيته لفضيلة المجتمع الصيني. وفي غضون عقد استبعد العجوز جميع أدوات التقدم، بما في ذلك التعليم، وإغلاق الجامعات، واستدعاء السفراء من الخارج، وإرسال خريجي الجامعات إلى العمل في الحقول حتى يكتسبوا الروح الثورية الجديدة وينقلوها عندما يعودون إلى مدنهم وقراهم.

في شباط عام 1973، بعد أول لقاء مع ماو، بدا الرئيس العليل جسدياً والذي كان ما يزال واعياً ذهنياً، يشعر بهذه الأزمة. وفي إحدى الجلسات حذرني ماو من النسوة الصينيات وآرائهن الراديكالية. وفي إشارة إلى تعديل جاكسون أمام الكونغرس الأمريكي لزيادة الهجرة السوفييتية من الاتحاد السوفييتي، عرض ماو بأن يمد الولايات المتحدة بعدد غير محدود من الصينيات. وكانت هذه في رأيه الوسيلة لتجنب كارثة محتملة في بلاده.

في البداية ظننته يمزح، ولكنه كررها عدة مرات قبل أن أفهم أنه يشير إلى راديكالية زوجته وجيانغ كينغ وأتباعها. وذهب ماو إلى القول إنه سينهي الثورة الثقافية. يجب أن يذهب التلاميذ الصينيون إلى الخارج، ولا سيما وأن لغتهم عقبة من عقبات التقدم. قال إن «الشعب الصيني محافظ جداً». وأضاف «لو أن الاتحاد السوفييتي يلقي بقنابله ويقتل كل من هم فوق الثلاثين من العمر، فهذا سيحل مشكلتنا». ولكن كان هذا تعبيراً عن أن المشكلة لا حل لها.

فـي غضـون سنة راجـع ماو نفسـه. في بداية عـام 1974 استقـال زهو لأسبـاب عملية كثيـرة، وبعد سنتيـن أبعـد دينغ ثانية كي يحل محله هيواغيوفينغ و«عصابة الأربعـة». وانهار الإصلاح على يد الماديين والأرثوذوكسيـة المادية. عندما رأيت مـاو آخر مرة عام 1975، اختتم الاجتماع بنزوة من نزواته بسخرية ممزوجة بالتناقض حول ما عمله. وقال في شرحه لسبب بقاء وضع تايوان بدون تغيير لفترة ما:

اللّه يباركم، ولا يباركنا. اللّه لا يحبني لأنني مقاتل من أمراء الحرب، وشيوعي أيضاً.

زهو إينلاي

كان علـى زهـو إينلاي، رئيس الـوزراء عبء أن ينقذ البلاد، ومحاولات مـاو المستمرة لإحداث ثوران دائم. كان لطيفاً وأنيقاً ومهذباً، والمفاوض الأول معي أثناء السنوات الثلاثة الأولى من العلاقات الصينية ـ الأمريكية. بعد رحلتي السرية في تموز 1971 وقبل تعيين ضباط للاتصال في كل عاصمة عام 1973، كنا مضطريـن إلى تبادل الرسائل عبر باكستان أولاً، ثـم عبر السفارة الصينية في باريس عن طريق الملحق العسكري الأمريكي الجنرال فيرنون وولتر، وأخيراً عن طريق الأمم المتحدة والبعثة الصينية فيها. الحوار بين الجانبين لم يكن له سابقة دبلوماسية. كان إرسال الرسائل مسألة معقدة فنياً، واللقاءات الشخصية التي أجريناها والقليلة جداً، كانت للتركيز على الأساسيات.

أولى زهو الأولوية للعلاقة مع أمريكا من خلال توفيره وقتاً لا حدود له للحوار معنا، وفي توفيره أوقاتاً لا حدود لها لحواراتنا. في رحلاتي القصيرة إلى بيجينغ كنا نلتقي لمدة ثماني ساعات كل يوم من الساعة الرابعـة بعد الظهـر تقريباً وحتى منتصف الليل. وكان يخيرني برقة ما بيـن «قاعة الشعب الكبرى» ومقر إقامتي في أحد بيوت الضيافة الفخمة، كانت طريقته في التعبير أن الوفد الأمريكي يشعر وكأنه في «بيته» علـى الأرض الصينيـة، وأن المباحثات ستجري بين «أهل البيت». خلال هذه الجلسات الطويلة التي كانت تتضمن وجبات لم يكن زهو ينشغل بأي شيء آخر. لم تكن تُحّول إليه مكالمات هاتفية ولا مذكرات. والحق أنه لم يكن هناك أي جهاز هاتف، حالة من الاهتمام بالأمور لا تخطر على بال أحد بل محظورة. ولا يمكن أن تتكرر عندما كنت أقابل زهو عندما كان يأتي في زيارة مقابلة. بدا زهو مصمماً على إظهار أنه لا توجد مهمة أكثر أهمية من إنشاء علاقة بين الصين والولايات المتحدة وتطويرها.

أجـرى زهـو المفاوضات المتتالية معززة بالطريقة الدقيقة التـي أراد أن يوجدها. على الرغم من أن القوات الأمريكية ما تزال في تايوان فإن مسألة وحدة الصين، التي كانت تثار دوماً من حيث المبدأ، كانت تُستبعـد، وعلـى نحو مشابه حتى لو كانت اجتماعاتنا تترافق مع أشد أعمال القصف الجوي لفيتنام خلال أربـع سنوات، كانت الهنـد الصينية تذكر عرضاً، وتفصـل الصين عن الأحـداث الجارية على حدودها. وكان زهو قد أشار قبل ذلك إلى أن الصين تتعاطف مع فيتنام ولكن ليس لأسباب أمنية، أو بسبب العقيدة الاشتراكية المشتركة. إنها بالأحرى سداد لتراث تاريخي:

نحـن مدينـون لهم من قبـل أجدادنا. لم يكن لدينـا مسؤولية منذ التحريـر لأننا أطحنا بالنظام القديم. ومع هذا نحن نشعر بتعاطف عميق معهم.

العاطفة بالطبع ليست كالدعم السياسي ـ والدعم العسكري بدرجة أقل. والقول إنه مهما كان الالتزام نتيجة للتاريخ فقد كان طريقة رقيقة للتأكيد على عدم وجود مصلحة صينية حيوية في الوقت الحاضر مع فيتنام.

كان زهـو مثل مـاو في صراحته، بل أكثر ـ في تصريحه بـأن الصين لن ترسل قوات إلى الخارج، وبالتالي فهي لن تتدخل في الهند الصينية، ولن تهدد مصالح أمريكا العسكرية الأخـرى. ومع أن بريجينيف كان يلمـح أحياناً (بدون تشدد) إلى أن إدارة أمريكا للحرب فـي فيتنـام يمكن أن تسيء إلى العلاقـات الأمريكية ـ السوفييتية، فـإن زهو لم يشر إلى ذلك.

أمـا بالنسبة إلى لاووس وكامبوديا فقد استبعد زهو بلاده عنهما أكثر، مدعياً أنه لا يعلم شيئاً عنهما، كما أن الصين ليس لديها التزامات تاريخية نحوهما:

عندمـا كنا نقـوم بثورتنا لم نكن نعرف شيئاً عن تلك البلاد (لاووس) وذلك رغم ذكرها كثيـراً في كتبنـا التاريخية بوصفهـا «أرض فيتنام» التـي تعني بالصينيـة حرفياً «أرض العشرة آلاف فيل». وكذلك الأمر بالنسبة لكامبوديا.

عندمـا تُدفع مشكلات جنوب شـرق آسيا إلى هوامش جدول الأعمـال، نستطيع أنا وزهو أن نركـز على الجوانب العالمية للعلاقـات الصينية ـ الأمريكية. وهذا يعتمد أساساً على قدرتنـا على ترتيـب إسهامـات متساوية لميزان القـوى العالمي ولاسيمـا الآسيوي. تلك المهمـة كانت دقيقة؛ إذ من أجل إعلان سياسات متوافقة لا بد من تحقيق تفاهم ضمني قائـم علـى آراء متوازية فيمـا يتعلق بتوازن القـوى. وهذا يتضمن، عمليـاً، التصريحات العامة ضد الهيمنة الواردة في «مذكرة شانغهاي».

الجملـة الأولـى التي قالها زهو لي أنـه ذكّرني برفض جون فوستـر دالاس مصافحته في جنيـف عام 1954 ـ وهـي تجربة مثيرة بعمق. لقد أصبحت وراءنـا: «ما يهم هو كلماتنا» لقـد فهـم ـ كما فهم نيكسـون ـ أن تعاوننـا الاستراتيجي القائم هو مـا يجب أن نحافظ عليه. اتبـع زهو التاكتيك الذي يستخدمه كثير مـن الدبلوماسيين للتأثير على جماعتهم أو رؤسائهـم ـــ اتخاذ بعض المواقف المتشـددة بداية ثم التفاوض والعـودة إلى تسوية. الصعوبة في مثل هذه المقاربة أن نتائجها غالباً ما تعكس الجَلَد أكثر مما تعكس الجوهر، وأنها تطيل المفاوضات لأن المفاوض لا يعرف أبداً ما هو الموقف الأخير.

خـلال رحلتـي السرية إلـى بيجينغ في تمـوز 1971 أشرك زهو إينلاي هوانـغ هوا، الذي سيصبح سفيراً في الأمم المتحدة، وبعد ذلك وزيراً للخارجية، للتفاوض بشأن المذكرة. اقترحـت، مفترضاً أن تكون مفاوضات على الطريقـة السوفييتية، أن يضع كلانا النتائج الفضلى ثم نرى ما يمكن أن يقتضي تسوية، وبخاصة ما يتطلبه كل طرف كي يهيئ شعبه للإعلان عن أنه تمت رحلة سرية وأن نيكسون سيزور الصين.

بعـد ساعتيـن من الحوار شـرح خلالها كل طـرف ضروریاتـه، افترقنا علـى أن نُحضّر مسودتيـن في الصباح التالـي. كان نص هوانغ هوا أقل تعقيداً ــ وبطريقة ما أقرب إلى وجهـة نظرنا من وجهـة نظرنا تجاههم. التنـازلات التي قدمها زهـو لمطالبنا قد زادت أهميتها بكسب الثقة التي أولانا إياها.

ثمـة مثـال آخر على أسلـوب زهو تجلى فـي ت1 1971 أثناء المفاوضـات التمهيدية التي باتت تعرف فيما بعد باسم «مذكرة شانغهاي». فقد اقترح زهو أن نتجاوز اللغة المعتادة التـي تستخدم لتمويه الخلافات القائمـة. لا يستطيع مطلع على تاريخ العلاقات الصينية ــ الأمريكيـة أن يأخذ على محمـل الجد وثيقة وقعهـا الطرفان بعد لقـاء واحد، اتفاقية علـى جميع القضايا الدولية. والأفضل من ذلك أن زهو اقترح أن يحدد كل طرف بوضوح أفـكاره الحقيقيـة ـ إذا كانت بالضرورة متناقضة ـ حول عـدد من القضايا. وقال إن من شـأن هذا أن يجنبنا سوء الفهـم حول الأمور الداخلية والدولية، مـع التأكيد على أي من النقاط التي يتم الاتفاق عليها.

مـع أنني وافقت على هذه المعالجـة، فإن النسخة الأولى من العرض الصيني لموقفهم قـد صدمتني لأنها شديدة التمسك بالعقائدية والمجابهة. لذلك اقترحت أن تُحذف عدة جمـل وبخاصة تلك ذات الطابع العدواني. وعرضت تطبيـق أساليب التفاوض التقليدية، واستبعـدت عـدداً مساوياً من الجمل في المسودة الأمريكيـة. أجاب زهو: «قدم جملتيك إلـى رئيسـك إذا شئت.. أنا لا أريدهـا.. كل ما أريده أن تقنعني لمـاذا لغتنا أحرجتكم». واستبعـد زهو بالفعل بعض العبارات من «مذكـرة شنغهاي». (ولكنهـا أعيدت في أول خطـاب لوزيـر الخارجية الصيني فـي الأمم المتحدة، ولما كانت مـن جانب واحد فإنها لم تلفت الأنظار).

بهـذه الطريقة وفي غضـون أقل من سنتين انتقلت الصين والولايـات المتحدة قُدماً إلى درجة عالية من التعاون وعلى أساس أكثر المناقشات صراحة واكتمالاً حول الاستراتيجية الشاملة مع حكومة أجنبية في فترة خدمتي في الحكومة (خلاف بريطانيا) لم يكن لدي

أوهام أن زهو الذي نجا من «المسيرة الكبرى» ومن عقود من حكم ماو الصارم، قد أثبت أنه مقتدر وكفؤ، فضلاً عن أنه مفكر. كما لعب زهو دوراً لا يمكن الاستغناء عنه عند ذلك المنعطف الخاص عندما واجه البلدان خطراً مشتركاً اقتضت مصالحهما القومية أن ينسقا سياستهما بدون الانحراف نحو مسائل هامشية.

كان ماو يطرح المفاهيم الأسياسية لوجهة نظر الصين بالطريقة التي يضع بها المؤلف الموسيقي الأناشيد الرئيسة لفرقة الأوبرا أمام الجمهور. أما مهمة زهو فهي الارتقاء بالأداء العملي لتلميحات ماو ومثالياته. وعندما يصل الأمر إلى حد مناقشة الضرورات الاستراتيجية للصين كان زهو جريئاً وأقل إصراراً على قدرة الصين على الوقوف بمفردها أكثر مما كان الأمر مع رئيسه. كان ماو فخوراً جداً بالتأكيد على عدم اتكال الصين بأية درجة على الأجانب حتى لو كانت سياسته قائمة على ذلك. أخذ زهو أهمية الدعم الأمريكي على أنه أمر مضمون ولكنه أصر على أن أي بلد يكتسب روحه المعنوية بالاعتماد على نفسه بالدرجة الأولى وبهذه الصفة فحسب يمكن أن يستحق المساعدة الخارجية:

الصين ليست دولة عدوانية أو محبة للحرب. ولكن في الوقت نفسه يجب أن نحافظ على استعدادات دائمة ضد جميع الاحتمالات لأننا ينبغي أن نكون مستعدين لأية مفاجأة إذا ما حدث أمر ما.

«في الصين ينبغي أن نكون مستعدين لكل حالة من عشرة آلاف حالة..».

وبهذا سنكون قادرين على الثقة بالنفس ونكسب أيضاً المساعدة المشتركة من الآخرين..

بالنسبة إلى هذه المسألة (التوسعية السوفييتية) قلت إنك ترى أن نمنع الحدث قبل وقوعه. وهذا يحتاج إلى جهود مشتركة أي أن نتصور جميع الجوانب. ولكن إذا لم نقم نحن باستعداداتنا بأنفسنا فسيكون هذا خطأ.

كان زهو في علاقته مع ماو يهتم كثيراً بالتأكيد على أنه تابع، سواء أكان ماو موجوداً أم لا. ذلك كان الأسلوب الحصين الوحيد، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار من سبقوه ممن دمرهم ماو إذا ما وصلوا إلى موقع «الوريث» في سلم المراتب الصينية. وحيثما أمكن كان زهو يعزز ملاحظاته باستشهادات من أقوال ماو، ويصف كل مبادرة جديدة بأنها مستقاة من ماو.

كان زهو يتحدث عن مشكلات الصين الداخلية بلهجة سلبية، رغم أنه كرئيس وزراء هو الذي ينفذها. وكان يمتدح مثل ماو اللغة الصينية لأنها وحدت البلاد، وإن كان يعتبرها، مثل ماو أيضاً، عقبة أمام التحديث. على الصين أن تتعلم الكثير من الولايات المتحدة، كما يقول، لأن لدى الولايات المتحدة

الشجاعة لاستخدام الشباب في الحكومة. ومع هذا فإن زهو لم ير أبداً أن من مهمته أن يحقق الاصلاحات التي توصف بأنها ضرورية. وكان دينغ يقول بشيء من الحزن لا شك أن زهو خفف من آلام الكثيرين ولكنه لم يحاول فعلاً أن يعكس السياسات التي سببت المعاناة بالدرجة الأولى.

وهذا ما ذكره على وجه الدقة زهو نفسه عندما وصف دوره أثناء «الثورة الثقافية» في لقائنا الأول في تموز 1971. كان زهو هو من طرح الموضوع مُصرّاً على أنني إذا كنت سأتعامل مع الصين علي أن أتعلم «الثورة الثقافية» التي وصفها على أنها جَيَشانٌ صنعه ماو للحيلولة دون ظهور طبقة ماندرين جديدة. ولكن الحملة كانت تدار بتعصب ايديولوجي زائد. المجتمع نما على الإيمان بحقيقة تاريخية واحدة وفجأة وجد نفسه يتمزق على يد فصائل جميعها تطلق على نفسها «الحرس الأحمر»، وجميعها تدّعي أنها تمثل الحقيقة الواحدة فيما كان يحولون تناقضاتهم إلى معارك في الشوارع. وذكر زهو كيف أصبح سجيناً، وهو رئيس الوزراء، في مكتبه على يد فصيل من فصائل الحرس الأحمر. في تلك اللحظة خمسون سنة من النضال والتضحيات بدت هباء منثوراً. ومع هذا، في النهاية، قهر زهو شكوكه وبدأ يفهم أن «ماو كان أحكم، ولديه الشجاعة كي ينظر بعيداً إلى المستقبل».

لم يشرح زهو أبداً ماهو هذا المستقبل. ولماذا يستدعي مثل هذه المعاناة الجسيمة. سواء كان زهو يشارك ماو حقاً في رؤيته أم لا، فهو قد قرر أن هذا المصير قد اختير له ليكون صنيعة في يد سيد مرعب.

مع بداية عام 1973 بدأ نجم زهو يخبو، لسبب غير واضح؛ فالصينيون حريصون على الاحتفاظ بسرية ترتيباتهم الداخلية. (ولقد اعتقدت دوماً أن فشل زهو في دور الوساطة مع كمبوديا كان عاملاً ساعد على هذا السقوط). ومهما كان السبب فقد شكا لي زهو مقدار الأعباء الثقيلة التي يحملها على الغداء في «قاعة الشعب الكبرى» في شهر ت2 1973. في حديث عام أبديت ملاحظة أن الصين تبدو لي ما تزال محافظة على الكونفوشيوسية بإيمانها بحقيقة واحدة عامة وكونية كمعيار للفردية والتماسك الاجتماعي. وأضفت: كل ما فعلته الشيوعية هو تأسيس الماركسية كمحتوى لتلك الحقيقة.

لا أستطيع أن أتذكر ما جعلني أقول هذا، مهما كان صحيحاً، لكنني بالتأكيد لم آخذ بالحسبان انتقادات ماو للكونفوشيوسية التي كانت تتعارض وسياسته. انفجر زهو وكانت تلك المرة الوحيدة التي أراه فيها يفقد أعصابه. الكونفوشيوسية، كما قال هي عقيدة القمع الطبقي في حين أن الشيوعية تمثل فلسفة التحرر. واستمر في إصراره على التهجم على الكونفوشيوسية. ولا شك أنه قال ذلك كي يسمعه نانسي تانغ المترجم الذي كان قريباً من زوجة ماو، جيان كينغ، ومن وانغ هيرونغ ابن شقيق ماو.

في بداية 1974 اختفى زهو من أجواء أية علاقات مع أمريكا. وبعد ذلك بوقت قصير أُعلن أنه دخل المستشفى. لم يذكر أي مسؤول صيني شيئاً عنه طيلة حياة ماو. من هنا فإن دورة الدوران في أفق ماو وفق النمط الصيني في ت2 1973 (وقد وصفت من قبل) قد انتهت فيما يبدو.

رأيت زهو آخر مرة في أواخر شهر ت2 1974. كان يقيم في بيت للضيافة تابع للدولة. كانت تصحبني زوجتي وأولادي لأراه فيما يسمى مستشفى. لم يكن يختلف ظاهرياً عن أي بيت ضيافة على الطراز السوفييتي. لم تكن ثمة أدوات طبية، وبدا لي زهو وكأنه لم يتغير بدنياً. كان يتهرب من الكلام ويقول إن الأطباء حذروه من الإجهاد. لم يشرح لي لماذا يكون الحديث المجدي أكثر إجهاداً من الأحاديث الاجتماعية الفارغة. ولكن الرمز كان واضحاً: إن زهو لم يعد من أتفاوض معه رسمياً.

وفاة زهو في ك2 1976 تحولت في نظر كثير من الصينيين إلى مناسبة للتأكيد على الجانب الإنساني للثورة. تجمع كثيرون في ميدان تيانانمين حزناً عليه. فسر ماو وحاشيته تجمع هذه الحشود على أنه تظاهرات موجهة ضد العقيدة المادية أو محاولة لخلق رمز منافس. وسرعان ما نظمت مظاهرات معادية، ودينغ، مجسد حركة الإصلاح، أُبعد ثانية.

بعد بعض الوقت عدت إلى الصين في زيارة خاصة عام 1979، وكان دينغ قد عاد إلى السلطة أما زهو فقد استُبْدِلَ به شخص آخر، استُقبلت من قبل زوجة زهو بشكل رائع. أُنشئ متحف في ميدان تيانانمين يضم بعض آثار مكتبه (التي لم أرها أبداً) وآثار بيته. لقد جذب المتحف عدداً كبيراً من الناس.

بعد فترة لم يعد يذكر شخص زهو وإن ظل شخصاً محترماً. وفي صيف عام 1995، بعد أن حصل (لي تينغ هيوي) رئيس تايوان على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ساءت العلاقات بين واشنطن وبيجينغ إلى حد الجمود. استدعي سفير الصين في واشنطن، لي دايو، ورفضت بيجينغ قبول أوراق اعتماد سفير أمريكي جديد.

ترافقت زيارتي للصين في الأول من تموز عام 1995 مع هذه الأجواء المتوترة. استخدمت الحكومة الصينية المناسبة لإحياء ذكرى زهو للإشارة إلى اهتمامها المستمر بالعلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة. دُعيت إلى استلام درجة شرف من «جامعة نازاكي» في تيانجين حيث درس زهو. تضمن الحفل خطب ثناء على زهو، ودوره في إقامة علاقات مع الولايات المتحدة. وفيما بعد، عندما التُقطت لي صورة أمام تمثال رئيس الوزراء المرحوم، وحُييت من قبل حشد من الطلاب الودودين. من المؤكد أنها كانت التظاهرة الوحيدة المؤيدة لأمريكا في الصين في تلك الأيام.

دينغ كيسياو بينغ

في عام 1974، في نهاية ولاية نيكسون، أصبح دينغ كيسياو بينغ مفاوضي الرئيسي. ومع أنني قصدت التعامل معه أثناء ولاية فورد في النقطة الملائمة في التسلسل الزمني، فإن قصة تراث زيارة نيكسون للصين لا تكتمل بدون لقاء إدارته بشخصية دينغ كيسياوبينغ البارزة.

كنا نعرف القليل جداً عن دينغ عندما ظهر فجأة كشخصية رئيسية في القيادة الصينية. وقد أعلمنا محللو المخابرات لدينا أنه كان الأمين العام للحزب الشيوعي حتى بعد عام 1996 مُتهماً «بتوجه رأسمالي». كما علمنا مؤخراً أنه عاد ليترأس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بتدخل من ماو شخصياً. وضد معارضة الراديكاليين في «المكتب السياسي».

ومع أن زوجة ماو، جيان كينغ، قد انتقدت دينغ علناً بعد عودته إلى بيجينغ بوقت قصير كان مهماً بالنسبة إلى ماو كرئيس، كاعتذار غير رسمي لدينغ على ما لقيه من معاملة أثناء «الثورة الثقافية». وقد تضمنت تلك المعاملة أن يعمل كعامل يدوي ويُحتجز عندما لا يكون هناك عمل، ورؤية ابنه يعاني من الكساح بعد أن طارده الحرس الأحمر وسقط أو دُفع من نافذة.

وذكرت لنا التقارير نفسها، في حديث إلى وفد العلماء الأستراليين، أن دينغ صُدم بما أصبح واحداً من أهم الموضوعات في العقود القادمة: وهو أن الصين بلد نام وفقير بحاجة إلى تبادل علمي وثقافي مع دول متطورة مثل أستراليا. ونصح دينغ أصدقاءه الأستراليين أن ينظروا في جولاتهم عبر الصين إلى الجانب المتخلف من البلاد وليس إلى انجازاتها فقط. وأظهرت تقارير مخابراتنا أن دينغ قد جيء به لتعزيز توجهات زهو الإصلاحية المفترضة أكثر من أن يكون عنصر توازن مع رئيس الوزراء.

ما إن قابلنا دينغ حتى تأكد لنا أن هذا التقويم الأخير كان خاطئاً بالتأكيد، لأنه كان يبعد نفسه على الدوام عن زهو. وصل دينغ إلى نيويورك في شهر نيسان 1974 كعضو في الوفد الصيني في الجلسة الخاصة السادسة للجمعية العمومية للأمم المتحدة. لم نلق إليه بالاً باعتبار أن وزير الخارجية كياو غوانهوا، كان رئيساً للوفد. لم يطلب دينغ مقابلتي ولم يغادر نيويورك حتى بعد أن ألقى كياو غوانهوا كلمته باسم بلاده. ولما كنت أعتبره تابعاً لزهو ومهتماً أساساً بالاقتصاد فإنني لم أدْعُه ووفدَه إلى الغداء إلا بعد أسبوع عندما جئت إلى نيويورك لإلقاء كلمتي المقررة في الجمعية العمومية.

سرعان ما اتضح من هو الرئيس الحقيقي للوفد الصيني. والأهم من ذلك. أن تعيين دينغ لم يكن للتخفيف من أعباء زهو، بل ليحل محله في الواقع. والحق أن اسم زهو لم يرد ذكره على لسان أي من أعضاء الوفد الصيني.

ومن أجل التأكد من أن الرسالة وصلتنا لم يذكر دينغ أي شيء أبداً، ولكنه أثار فجأة إلى محادثاتي الأخيرة مع زهو بالسؤال عما إذا كنت أعرف شيئاً عن كونفوشيوس. ولكي أتجنب انفجاراً آخر كالذي جرى مع زهو، أجبت بتملص مما جعل دينغ ينورني: قال:

> كونفوشيوس كان باختصار خبيراً في المحافظة على الطقوس الدينية وهو محافظ جداً. وعقيدته كانت موضع إيمان الصينيين لأكثر من ألفي سنة. وكان لها تأثيرها الكبير على الشعب. إذا كنا نريد أن نحرر أيديولوجيا الشعب من التفكير القديم، علينا أن نزيل كونفوشيوس. وهذه خطوة لتحرير تفكير الشعب.

سألـت إذا مـا كان الجدل في الصين نظرياً أم عملياً، ولا سيمـا إذا ما كان «موجهاً ضد الأفـراد، الأفـراد الأحياء، بدلاً من الأفراد القدماء». لم يلفظ دينغ بكلمة للتأكيد على أن الحملة المناهضة لكونفوشيوس لها هدف معاصر حقاً.

عندمـا تنتقـد أيديولوجيا محافظة فمن الطبيعي أن تؤثر فـي بعض العاملين ـ بعض من يمثلون الأيديولوجيا المحافظة يتعرضون للهجوم.

مـع الوقـت بدأت أكن احترامـاً كبيراً لهـذا الشخص القصيـر ذي العينين الحزينتين الـذي تمسَّكَ بقضيتـه فـي وجه ظـروف معاكسة بالغـة الصعوبة والذي سيحول بـلاده، مع الوقت أكثـر بكثير مما فعل أسلافـه. ظل ماو على الصين التقليدية قد أوجد بلداً متحداً، ولكنه ترك أيضاً فراغاً، كما أشار هو نفسه عندما قال لنيكسون إنه لم يغير في الواقع إلا بيجينغ. ولكن خارج الخراب الذي أحدثته «الثورة الثقافية» استطاع دينغ أن يدخل التحديث الذي حوّل الصين إلى دولة اقتصادية عظمى في غضون إحدى وعشرين سنة، وكان بالتاكيد سيحول البنية السياسية. اقتصاد السوق الاشتراكي الذي بناه تخلى عن كل شيء عدا طقوس ماو الشكلية. لقد بنى اقتصاد السوق الاشتراكي الخاص به الذي سماه اقتصاد السوق الاشتراكية ـ كما أقام علاقات ودية مع الولايات المتحدة.

فـي اللقـاء الأولي في نيسان 1974 لم يعتبر أحد منا دينـغ شخصاً مهماً. كان يتصرف كأنه في مهمة تدريبية لتعلم كيفية التعامل مع الأمريكيين الذين لم يكن على صلة معهم. كان يؤيد مقولة ماو بأن الروس يعملـون فـي الشرق كي يضربوا في الغرب. وكانت هذه طريقـة ماو في وصفه لأمريكا بأنها الطرف الأكثر تعرضـاً للتهديـد. أشرت إلى أنه من غير المثمـر أن نتناقش حول بؤرة اهتمـام الاستراتيجية السوفييتية سـواء كانت أوروبا أو آسيا، إذ «حيثما كانت تلك البؤرة فإن الخطوة التالية ستكون واضحة». لم يجد دينغ فائدة من النقاش واكتفى بالقول إن التجربة ستبين كل شيء:

تحدثنـا مع أصدقائنا اليابانيين حـول هذه النقطة لم يبد أنهم متحققون من ذلك. يبدو أنهم يعتقدون أن المقاصد السوفييتية في «الشرق» لا تشملهم.

بعبارة أخرى كان دينغ يود أن يعمل معنا على بناء تحالف.

مـاو وزهو نادراً ما تجـاوزا الحديث عن سياسات متوازية. وفي حيـن أن زهو قد اقتصر علـى الترحيـب بجهود أمريكية وحيـدة الجانب لإيجاد جبهة معاديـة للسوفييت موحدة، أشار دينغ إلى استراتيجية «مشتركة» كتلك التي «نعمل معاً على تثبيت الدب في الشمال». بهـذه الـروح حثّنا على أن نكـون أكثر حساسية تجـاه حلفائنا الأوروبييـن: «إذا أظهرتم اعتباراً أكبر للأوروبيين، ألن تكون هناك نتيجة أفضل؟».

بعد فترة قصيرة من لقائي الأول مع دينغ استدعى سقوط إدارة نيكسون ومجيء إدارة فورد ثغرة استغرقت قرابة ستة أشهر في التبادل رفيع المستوى ما بين بيجينغ. واشنطن. في تلك الفترة أظهرنا التزامنا الكامل بسياسة نيكسون تجاه الصين، عن طريق هيوانغ زهين، ضابط الاتصال الصيني الرئيس في واشنطن، حول وجهات نظرنا في الأحداث الظاهرة. وبهذه الروح استقبل فورد ضابط الاتصال الصيني هيوانغ زهين في المكتب البيضاوي لمدة ثلاث ساعات بعد تنصيبه كي يؤكد على ما بدأه نيكسون. ومع هذا لم يفتنا أن نلاحظ أنه أثناء الجلسة السنوية للجمعية العمومية للأمم المتحدة في شهر أيلول 1974 ألقى كياو غوانهوا خطبة شابهت ما بين الولايات لمتحدة والاتحاد السوفييتي تقريباً في تهديدهما للسلام.

لم يكن ذلك صدفة. فحيوية العلاقات الصينية ـ الأمريكية كانت تعتمد على الاعتراف بالمصالح المتوازنة والقدرة المشتركة على تأييد كل واحدة للأخرى. وهي تعاني عندما تبدأ النظرة إلى المصالح الوطنية المشتركة تختلف أو عندما يتغير تنفيذ الآراء المشتركة. لقد وقع كثير من الاضطرابات الداخلية في الولايات المتحدة ولم يكن لها بعض التأثير على نظرة الصين إلى فعالية الشراكة الصينية ـ الأمريكية. كان اهتمام الصين بالشراكة تلك قائماً على افتراض أن الولايات المتحدة ملتزمة بالتوازن الدولي وحريصة على تنفيذ قناعاتها الاستراتيجية الراسخة. ومع هذا ففي غضون اثني عشر شهراً شهد الصينيون تفكك قوتنا التنفيذية في أعقاب «ووترغيت» وهم مضطرون إلى التعرف على رئيس جديد لم يقابله أحد من كبار مسؤوليهم الحاليين. وكان الكونغرس يتحدى السلطات الرئاسية حول الهند الصينية، وقبرص، وقوى الحرب، ونشاطات المخابرات، كل ذلك قلص من الثقة فيما يقوله الأمريكيون، فيما كان الخلاف حول «الانفراج» يثير تساؤلات حول اتجاه سياسة الحرب الباردة الأمريكية.

عندما استلم فورد السلطة لم تكن المسألة مسألة سياستنا تجاه الصين، بل قدرتنا على الاستمرار في إعطائها معنى.